ابو الطيّب المتنبي (٩١٥ــ٩٦٥)

بقلم فؤاد افرام البستاني استاذ الآداب العربيّة في كليّة القديس يوسف

٣

الشاعر

طريقته في المراثي والمفاخر والحكم

تكلّمنا في العدد الماضي عن شعر المتنبي اجمالًا ، ودرسنا طريقته في المدح والهجاء خاصّة ، واجتهدنا في تحليل فنّه ، فرأيناه شاعر العظمة على الاطلاق . وها نحن الآن نتابع البحث في طريقة الشاعر اذا ما اراد رثاء او فخرًا او ارسال حكمة فنقول :

المراثي

من شروط الرثاء ، كي يأتي طبيعياً لا يتكلّفه الشاعر ولا ينضجر منه المطالع ، ان يشعر الراثي بقوّة المصيبة ، وتأثير الفاجعة . وقد يأتي هذا الشعور على نوعين : نوع عاطفي ينصرف فيه الشاعر الى ابراز ما يخالج قلبه من دواعي الحزن ، وعوامل الأسف على شمائل المرثي وفضائله ، دون ان يحكّم عقله في عرض مصيبته على مصائب الغير مثلًا ، او الالتفات الى هذا العالم الفاني ، والدنيا الغرّارة . ونوع عقليّ يتّحد فيه الرثاء بالتعزية ، والحزن بالسلوان . فيرتفع الشاعر من ذكر مصيبته ، الى الافكار العامّة كزوال الاحباب ، وفناء الدنيا ، وسطوة المنون وغير ذلك . ونحن ، اذا تدبّرنا فنّ المتنبي في رثائه نراه يرغب في النوع الاخير ، ولا غرابة ، فقد عرفناه شاعر الافكار والحكم ، لا تتملّكه الاحساسات الرقيقة ، ولا تضلّ عقله شوارد القلب المختلفة . فهو

حتى في رثاء جدّته ، التي كان يحبّها كثيرًا ، لا يفقد عظمة المرّوات الشامخة التي يلزم ان تترفّع ، في اعتقاده ، عن عواطف الشوقة ؛ فلا يكاد يفسح مجالًا لعواطفه ويقول :

أحنّ الى الكأس التي شربت بها وأهوى لمثواها التراب وما ضمّا
بكيت عليها خيفةً في حياتها وذاق كلانا ثُكل صاحبه قِدمًا

حتى تعاوده افكار التعزية ، والترفّع عن المصائب ، ومقابلة حوادث الدهر بالصبر ، لا صبر الخاضع المستكين ، بل صبر القِرن على غدر قِرنه ، فيقول :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهتني لم تزدني بها علما

. . .

كذا أنا يا دنيا ! اذا شئتِ فاذهبي ! ويا نفس زيدي في كرائهها قُدما !

وكأنه ينتبه فجأة الى ما سيقوله حسّاده ، في هذه المصيبة ، وهو يأنف من الشماتة ، وخصوصاً في الموت الذي لا شماتة فيه ، فيفخر عليهم سلفاً ، ويسكتهم قبل ان يتشدّقوا ، فيصيح :

لئن لذّ يومُ الشامتين بيومها لقد وَلَدت مني لأنفهم رَغما

واننا لا نرى ، في غير ما تقدّم من رثاء جدّته ، اثرًا لعواطف الحزن الطبيعي ، وتأثيرات الاسف الحقيقي ، اللهم بعض ابيات من رثاء ابي شجاع . ولا يُلام شاعرنا على هذا النقص لما قدّمناه من الاسباب . امّا اذا ألزمتَهُ ان يموّه على الناس ، فيخترع حزناً لا يشعر بهِ ، ويصف مفاعيله المزعومة في قلبه ، ويظهر تأسفاً على مزايا فقيدة او شمائل فقيد لا يهمّهُ من امرهما شيء ؛ فانك تدخله في مأزق لا يعرف كيف يتخلّص منهُ ، وتكلّفه ما لا يستطيع . فتراه حائرًا يطرق ابواب التملّص فلا تنفتح لهُ الّا بالتعسّف ، ويجرّب طرق التجملات فلا تنبسط امامه الّا بالابتذال . وربما جرّه جهل الاساليب اللطيفة في مواقع الكلام الى فساد الذوق واساءة الادب ، فخاطب ام سيف الدولة المرثية بقوله :

بمثلك ! هل سلوت ؟ فانّ قلبي وان جانبتُ قبركِ ؟ غير سالي !

او عزّى سيف الدولة عن أخته بقوله (مخاطباً الارض) :

وهل سمعتِ سلاماً لي الّمّ بها فقد أطلتُ وما سلّمتُ عن كثبِ !

وهو غاية الغايات في سوء الادب وفساد الحسّ ، والجهل بمواقع الكلام ، حتى قال ابو بكر الخوارزمي : « لو عزّاني انسان عن حرمة لي بمثل هـذا ، لالحقته بها وضربت عنقه على قبرها . »

أمّا اذا خلّصت ابا الطيّب من هذه الواجبات ، التي لا يأبه لهـا ولا يهمه امرها الى التعازي الحكمية والاقوال الفلسفية . فهناك لا يسعك الّا الخضوع امام الحكم الشائقة التي سارت امثالا على كرّ الايام . وايّ انسان تتراكم عليه المصائب ، فيهدّه الاسى ، ولا يقول خاضعاً:

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت اذا اصابتني سهامٌ تكسّرتِ النصالُ على النصالِ !

وايّ حكيم يرى سيطرة الموت الهائلة ، وعقم الوسائط البشرية في الخلاص منهُ ، ولا يردّد :

يموت راعي الضأن في جهله مِيتة جالينوس في طبّه !

وعلى الجملة فاننا نرى المتنبي معزّياً حكيماً ، لا راثياً عاطفيّاً .

المفاخر

لم يفرد ابو الطيب قسماً خاصاً من شعره لنظم مفاخره ؛ لانـهُ لم يكن ليعتقـد بامكانه نظم قصيدة لا يفخر فيهـا . فكل شعره مجال لكبريائه وعجبـه بنفسه ، وعظمته على الغير . وهو ، من هذا القبيل ، في اعتقـاد صادق ، وايمان راسخ ، حتى انهُ يعطينا اسباب هذا العجب ؛ وهي عدم وجود من يماثله في الكون ، وذلك قوله :

ان اكن معجباً فعجبُ عجيبٍ لا يرى فوق نفسه من مزيدِ !

ولكن هذا الفخر، لم يكن المتنبي ليرضاه على عامّة الناس، على السوقة؛ وايّ فضل في ان يكون الانسان خيراً من ذاك الصنف من المخلوقات الذي يجمع فيه ابو الطيّب اللئام، والعبيد، والبهائم، والجبناء؟ ايّ فضل في ان يكون المتنبي اشرف من البشر الاعتياديين؟؟؟ انما الفخر كل الفخر في ان يفوق المتنبي المتفوّقين، ويشرف الشرفاء، ويفخر المفخورين! ولهذا نراه يجتهد، في مفاخره، حتى يصوّر سادات القوم عظماء شرفاء ثم يصوّر نفسه فوقهم. فيقول جاعلاً نفسه مصدر كل فخر وشرف لحقّ بآباء وجدوده، مع أنهم مصدر كل فخر لحقّ بأبناء الضاد كافة:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ! وبنفسي فخرت لا بجدودي !
وبهم فخر كلّ من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد !

امّا ما سوى نفسه من جميع ما «خلق الله وما لم يخلق ايضاً فمحتقر في همته، كشعرة في مفرقه !»

وقد يتجاوز هذا الاحتقار المعاني الى الالفاظ، والاوزان، والصيغ، فترى جميع من يحقّرن بكافور، «عضاريط رعاديد» ويصير كافور «خنزيراً وثعلباً وكلباً»، وشفته «مشفراً» وشخصه «مجموعة مخاز» ويصبح الناس المتساوون «سواسية» والبشر «خلقاً واشباحاً» والملوك «ارانب». ويضحي كل شيء صغيراً في عيني المتنبي حتى لا يعبّر عنهُ الا بصيغة التصغير، فهو اذا خاطب كافوراً سمّاه «كويفيراً، وخويدماً، والنوبيي بُنيّ النوبيّة». واذا شكا زمانه، ذمّ «اهيله»، وهجا «أُخيمقه»، وانكر القيادة فيه على «ابن الأُعير»، واخفت، تحت ضبنه، صوت كل «شويعر» يقاويه...

الحِكَم: فلسفة المتنبي — مذهبه في ما وراء الحياة

شاء الاستاذ عباس محمود العقاد ان يجعل من المتنبي فيلسوفاً، يرفعه الى مقرّ فلاسفتنا العصريين، فيحلّه جنب نيتشه، حامل لواء الجبروت الجرماني في آخر القرن التاسع عشر، بل يجعله سابقاً نيتشه الى الكثير من افكاره ومبادئه،

موفقاً بينه وبين داروين في الطريقة التي يفهم بهـا البشر حياتهم وغايتهـا ، ويحفظون ذواتهم . . . [١]

اما اذا كان الفيلسوف ذاك العالم المهتمّ بالتفتيش عن اسباب مظاهر الكون ، ودواعي الحيـاة ، الباحث في كيفيـة تطوّر الحوادث ، المتعمق في استقصاء المقدّمات والنتائج لكل محسوس ومعقول ؛ فما انأى المتنبي عن الفلسفة ، ومـا ابعده عن لقب الفيلسوف . واما اذا كان المقصود بالفيلسوف كل رجل يختص بمذهب شخصي في هذا الكون ومن يعيش فيه ، ثم يراقب طرق الحياة واخلاق البشر ويردّها الى ذاك الأصل ؛ فلتكن مشيئة الاستاذ ، ولينفتحْ صرح الفلسفة ابوابه واسعة لاستقبال الشاعر الفيلسوف !

عرفنا ابا الطيّب متكبرًا معجباً بنفسه « لا يرى فوقها من مزيد » ، سبّاقاً للغايات ، طالباً منها ابعد ما يتصوّره الفكر ، وكل ذلك بقوّتـه وهمّته ، لا بحسن حظّه « لان نجمه دائمًا في نحوس ولكنّ همته في سعود » . فلزم اذًا ان تكون هذه الكبرياء المتجسّمة بهمة شاعرنا ، اصلَ فلسفته . فهو ، والحالـة هذه ، يتفق ونيتشه ، فيلسوف القوّة ، وخـالق « الانسان السامي » . ومن يقابل بين ابيات المتنبي واقوال نيتشه ، كما فعل الاستاذ العقّاد ، يتحقق صحة هذه المشابهة ، ويرى ان الشاعر الشرقي في القرن العـاشر ، لم يكن لينحطّ ، فكرًا وتعبيرًا ، عن الفيلسوف الغربي في القرن التاسع عشر . من منّا يسمع نصائح نيتشه قائلًا :

« يا اخواني في الحرب ! اني احبكم من كل قلبي . . . فـاسمحوا لي ان اقول لكم الحقيقة :

« كونوا عظماء . . . فتشوا عن اعدائكم . . . حاربوا . . .

« عليكم ان تحبوا السلم كواسطة للحروب الجديدة ! . . .

---

١) عباس محمود العقاد : مطالعات في الكتب والحياة — ص : ١٤٤—١٧٤

« انا لا انصح لكم العمل بل الكفاح ! انا لا انصح لكم السلم بل النصر . ليكن عملكم كفاحاً وسلمكم نصراً . » (١)

من منا يسمع هذه النصائح ولا يفكر حالاً بنصيحة المتنبي :

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ فلا تقنعْ بما دون النجوم !

او بحالته الدائمة في الحرب والكفاح . كقوله :

مفرشي صهوة الحصان ، ولكنّ م قميصي مسرودةٌ من حديدِ !

وقوله محدّداً المجد :

فما المجدُ الّا السيف والفتكة البكرُ
وتضريبُ اعناق الملوك ، وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجرُ . . .

اما طريقة طلب حقه فلا تختلف في شيء عما ينصّ نيتشه . فهي ليست العمل بل الكفاح والعراك :

سأطلب حقي بالقنا ، ومشايخٍ كأنهم ، من طول ما التثموا ، مُردُ

وهو لا يسلك الّا هذه الطريق:

ولا سالكاً الا فؤاد عجاجةٍ ولا واجداً ، الا لمكرُمةٍ ، طعما !

إن مبدأ فلسفة المتنبي القوة ، والطريقة الوحيدة لإدراك الغايات ، في عرفه ، هي الكفاح والعراك . ولما كان في البشر شجعان وجبناء ، انقسم الناس بحكم الطبع ، في مذهب شاعرنا الى قسمين : في القسم الاول ، يرى الشجعان ، السادات ، الكرام ، الأحرار ، وبعض الملوك . وهؤلاء وحدهم يليقون ان يكونوا اقراناً للمتنبي ، يكافح معهم ، ويحاربهم فيكون له الفضل ، اذا ما انتصر عليهم . اما القسم الثاني فيشمل الجبناء ، اللئام ، البهائم ، العبيد ككافور مثلاً ، وبعض الشعراء من حسّاد المتنبي ، وهؤلاء لا نفعَ منهم إلّا تضييق مجال الكون ، ولا يليق بالكريم ان يناظرهم او يسابقهم الى امر ، حتى انه لا يليق به ان يعيش معهم الّا كما « يعيش الذهب بين

(١) فريدريك نيتشه : « هكذا قال زرادشت ! » ـ القسم الاول ـ ص : ٦٣-٦٦ ، من الطبعة الفرنساوية ١٩٣١

الرغام» اما اذا أجبر الحرّ على الحياة طويلاً مع هذا النوع من «الخلق» فيكون الموت والحياة سواء :

وما موت بابغض من حياةٍ اری لهم معي فيها نصيبا !

وهــذان القسمان من الناس متباينان تماماً فــلا صلة بينهما ، ولو تقاربا في الظاهر :

فالعبد ليس لحرٍّ صالحٍ بأخٍ لو انه في ثيــاب الحرّ مولود !

حتى ان افكار القسم منها لا تشابــه افكار القسم الآخر . فبينــا يرى احدهما المجد في اللذّات والشرب ، يراهُ الآخر في الحرب والانتصار . وبينــا يعتقد الجبان ان الواسطة لبقاء نفسه هي ان يصونها عن الحرب ، يرى الشجاع عكس ذلك ، اي انه يحافظ على نفسه بدفع المهالك . اما سبب هذا التباين في الافكار فناتج ، كما رأينا ، عن اختلاف الجبلات ، وتعوّد العبيد الذلّ حتى انهم لا يشعرون بذلهم بعد ذلك:

من يهنْ يسهل الهوان عليه ما لجرحٍ بميْتٍ ايلامُ !

وهنا ، على مــا ارى ، يقف وجه الشبــه بين الشاعر العربي والفيلسوف الجرماني . فان شاعرنا لا يهتم بكل نتائج هذا المبدأ ، ولا يضحّي بالضعفاء في سبيل تعزيز القوي وخلق «الانسان السامي.»

اما مذهب المتنبي في ما وراء هذه الحياة ، فقد اختلف الادباء فيه لاختلاف مقاصد الشاعر في ابياته المتفرّقة . فنسبه بعضهم الى السوفسطائيين ، وهم من لا يعتقدون بوجود المحسوسات ، بقوله :

هوّنْ على بصرٍ ما شقّ منظرهُ فانما يقظات العين كالحُلُمِ !

وقال غيرهم بل هو على مذهب الهوانية او المادية بدليل قوله :

تبخلُ ايدينا بارواحنا على زمــانٍ هنّ من كسبِهِ
فهذه الارواح من جوّهِ وهذه الاجسام من تربه ! (١

١) ابن نباتة المصري : سرح العيون – ص : ١٧

واعتقد بعضهم انه كان من الشاكين فقال:

تخالف الناس حتى لا اتفاقَ لهم الّا على شَجَبٍ والخلفُ في الشجبِ
فقيل : تخلص نفس المرء سالمةً وقيل: تشرك جسم المرء في العطبِ

على اننا نعتقد ان المتنبي لم يكن له مذهب خاصّ في هذه الامور ، وهو كما عرفناه ، لا جَلَدَ له على البحث والتفكير في مصدر الانسان ، ومصيره ؛ فقطع تلك المشاحنات بقوله :

ومن تفكَّر في الدنيا ومهجته اقامه الفكر بين العجز والتَعَبِ

وهو لا يحبّ هذا النوع من العجز . ولا يرى من مظاهر الحياة غير القوة وحسب . وعليه ، فانه كما امكننا القول عن المتنبي الشاعر انه «شاعر العظمة» كذلك يمكننا التأكيد ، اذا ما ذكرنا المتنبي المفكر ، أنه « فيلسوف القوّة !»

جولة في كسروان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني

٣ً ريفون (١

ريفون من اجمل قرى كسروان الصردّية موقعاً ، وافضلها مناخاً ، وابهاها منظراً ترتفع عن البحر نحو ١٢٠٠ متر . فان العين تقع منها على القرى الجميلة والجبال الناطحة برؤوسها السحاب وهي مطلقة للبصر مداهُ من جهاتها الاربع فشرقاً ترى صنين ومزرعة كفرذبيان ، وقبلةً ظهور الشوير وبكفيا وبجرصاف وقرنة شهوان وسوق الغرب ، وغرباً بيروت وسواحلها والبحر المتوسط وقسماً من مرتفعات عنطورا ، وشمالاً عشقوت ومعراب وغسطا وبزمّار وسيّدة حريصا. وهي مشيَّدة على قمة عالية ومكسوّة باشجار الصنوبر القديمة ومتفلفلة بين

١) يقال ان اصلها رافان : اسم صنم . راجع تاريخ المقاطعة الكسروانية ص ١٥